في التصوير الإسلامي

ليـــلى والمجنون

للدكتور محمد مصطفى

— ٢ —

جاء قيس محققاً ما تمنّاه والداه ، لا يعرف قلبه سوى أخلص الحب ... يعشق الجميل ويحب الجمال ... فكان وهو في مهده يتطلع إلى الفتيات الجميلات المليحات ، ويرنو إليهن في شغف ونهم ، كأن في منظرهن ما يجلب السرور إلى قلبه ، أو ما هو غذاء لنفسه الصغيرة ، يصيح في طلبهن إذا ابتعدن عنه ، ويبكي في توجع وتوسل ليقترب منهن إذا لم يستطع رؤيتهن . ثم صار يجالسهن ويحادثهن ويستنشدهن الشعر ، حتى حفظ منه الكثير ، فاكتسب حديثه طلاوة ولباقة ، وأسلوبه أناقة وطرافة ، وأخذ على صغر سنه يقرض شعر الغزل وينشده ، ويغازل به الفتيات ويشبّب بهن ، وكأنه جاء من عالم آخر لا يعرفه بنو عامر ، ولا عهد لهم به ، فالحب والغزل في رأيهم « إنما يكون في اليمانية الضعاف قلوبها ، السخيفة عقولها ، الصملة رءوسها » .

ولما كبر الصبي وفات سن الطفولة ، أرسله أبوه إلى المدرسة مع أقرانه الصغار من الفتيات والفتيان . وبين الفتيات كانت فتاة تسمى (ليلى) ، كان أبوها شيخاً لبطن أخرى من بطون بني عامر ، ووقعت ليلى موقعاً حسناً من قلب قيس فمال إليها وأحبها وقال في وصفها[1]:

بيضاء خالصةُ البياض كأنها ... قمرٌ توسّط جُنحَ ليلٍ مُبرَدِ
موسومةٌ بالحسن ذاتُ حواسدٍ ... إنَّ الجمالَ مَظِنّةٌ للحسّدِ
وتُرى مدامعُها ترقرقُ مُقلةً ... سوداءَ ترغبُ عن سوادِ الإثمِدِ
خودٌ إذا كثُرَ الكلام تعوذت ... بحِمى الحياءِ وإن تكلّمَ تقصدِ

ووقع لقيس في قلب ليلى مثل ما وقع لها في قلبه ، فكانا يجتمعان كل يوم في المدرسة ليدرس كل منهما ما يتجلى في نظرات صاحبه وقسماته من الحب والهيام . وحاولا أن يخفيا حبهما عن أصحابهما ... ولكن عبثاً ... فإن الحب يشبه الطيب أو المسك إذا وجد في بيت لا يمكن إخفاء رائحته . ففي ذات يوم أرادت ليلى أن تعلم ما لها في قلب قيس ، فأعرضت عنه ، وأقبلت بحديثها على غيره ، فلما رأى ذلك جزع جزعاً شديداً حتى خافت عليه فقالت له[1] :

كلانا مظهر للناس بغضاً ... وكل عند صاحبه مكين
تبلغنا العيون بما أردنا ... وفي القلبين ثمّ هوىً دفين

فلما سمع قولها سرى عنه وعلم ما له في قلبها ، وانصرف عنها وهو من أشدّ الناس سروراً وأقرّهم عيناً ، وقال :

أظن هواها تاركي بمضلة ... من الأرض لا مالٌ لدى ولا أهلُ
ولا أحدٌ أقضي إليه وصيتي ... ولا صاحب إلا المطيّة والرحل
محا حبها حب الألى كن قبلها ... وحلت مكاناً لم يكن حل من قبل

(شكل ١)

ولما سمع جلساؤها ذلك فطنوا إلى أمرها ، وشاعت قصة

(١) الأغاني ص ٨٣ ، وتزيين الأسواق ص ٦١

(١) الديوان ص ٣ ، والأغاني ص ٤٦ ، وتزيين الأسواق ص ٤٤

غرامهما بين الناس حتى بلغت مسامع والد ليلى فأبعدها عن المدرسة وحجبها عن قيس ، ومنعه من رؤيتها والتحدث إليها ، وتوعده بالشر إذا اقترب منها ، فقال قيس فى ذلك[1] :

ألا حجبت ليلى وآلى أميرُها ... علىَّ يميناً جاهداً لا أزورُها
وأوعدنى فيها رجالٌ أبوهُمُ ... أبى وأبوها خُشِّنَتْ لى صدورها
على غير جُرم غير أنى أحبُّها ... وأن فؤادى رهنها وأسيرها

وفى (شكل ١) منظر داخلى للمدرسة بين قبة يجلس تحتها المعلم بلحيته البيضاء الطويلة ، وعلى رأسه عمامة كبيرة ، وفى يده عصا لتأديب « أشقياء » التلاميذ ، وأمامه تلميذ يتلو عليه ما حفظه من الدروس . ونرى قيساً جالساً إلى اليمين فى معزل عن زملائه ، يسند رأسه على ذراعه غارقاً فى تأملاته كأنه يفكر فى حبيبته ليلى التى تجلس إلى اليسار بجانب صديقة لها تواسيها وتعطف عليها . ويقرأ أو يكتب بعض التلاميذ الآخرين فى كتبهم ويتجادل آخرون . وإلى اليسار يتقاذف « شقيان » بأدواتهما المدرسية ، غير عابئين باحتمال إصابة « زير الماء » الموضوع فى الركن الأيسر على كرسى حامل له ، وما قد تجلبه هذه الإصابة على جسديهما من آثار عصا المعلم . ولم ينس المصور أن يخفف من حدة « عصا » المعلم ببيت شعر كتبه على مدخل القبة ينشده فيه ألا يعلم الفتاة الشقراء ذات الوجه الجميل سوى كل شىء حسن هى جديرة به . وهذه الصورة[2] فى مخطوط من المنظومات الخمس للشاعر نظامى الكنجوى كتبه الخطاط سلطان محمد نور ، ومؤرخ سنة ٩٣١ هجرية (١٥٢٥ م) ، وقد اختلف مؤرخو الفن الإسلامى فى نسبة الصور التوضيحية التى به[3] ، ولكننا نرجح ما يقوله الأستاذ كينل[4] فى نسبتها إلى المصور شيخ زاده تلميذ المصور الكبير بهزاد الذى هاجر معه إلى مدينة تبريز . وهذا المخطوط محفوظ فى متحف المتروبوليتان للفنون الجميلة بنيويورك

(١) الديوان ص ٤ ، والأغانى ص ٦٨
(٢) منقولة عن : Dimand, Pl. I
(٣) أنظر : زكى محمد حسن ، التصوير فى الاسلام ص ٦٠
(٤) فى : S. P. A., III, p. 1872, 1873, n. 2.

— ٣ —

بعد أن حجبت ليلى فى منزل أبيها ، حزن قيس وضاقت الدنيا فى عينيه ، ولما لم يجد فى المدرسة ما يرفّه عن نفسه الحزينة ويسرى عنه ، هجرها وهام على وجهه يبحث عن حبيبته فى منزل والديها . ولما أعياه ذلك عمد إلى الحيلة فتزيا بزى درويش عجوز أعمى قد أناخ عليه الدهر بكلاكله ، وسار يتلمس طريقه بعكاز فى يده حتى وصل إلى بيت ليلى ، فألقى بنفسه على عتبته متصنعاً الإعياء . وخرج أهل الدار لمساعدة هذا الدرويش البائس الذى أنهكه السير الطويل وشقة الطريق ، وكانت بينهم ليلى فعرفته وأمسكت يده وشدت عليها لتعلمه أنها ما زالت على عهده بها ، ولكى تجدد ما قطعته على نفسها من ميثاق الإخلاص له فى الحب . ولاحظ والدها ذلك وتعرّف على قيس ، فنهر ابنته وطرد قيساً ، فزاد ذلك من شدة حزنه ويأسه . وعاتبه أصحابه ورموه بالجنون لما رأوه فى مسلكه من شذوذ ، فقال لهم[1] :

وإنى لمجنونٌ بليـــلى مُوكَّلُ
ولستُ عَزوفاً عن هواها ولا جَلْدَا
إذا ذُكِرَتْ ليلى بكيتُ صبابة ... لتَذكارها حتى يبل البكا الخدَّا

وسماه أصحابه « المجنون » وصار يعرف بين قومه بهذا الإسم . واشتد به الحزن واليأس فاعترض على قضاء الله بقوله[2] :

خليلى لا والله لا أملك الذى ... قضى الله فى ليلى ولا ماقضى ليا
قضاها لغيرى وابتلانى بحبها ... فهلاّ بشىء غير ليلى ابتلانيا

فسلب عقله ، وهجر أهله وذويه ، وانفرد فى جنبات الحىّ عارياً ، لا يلبس ثوباً إلا خرّقه ، يخطط بأصبعه فى التراب ، ويجمع العظام حوله ، ولا يجيب أحداً سأله عن شىء إلا إذا ذكروا له ليلى ، فيرجع إليه عقله ويخاطبونه فيجيبهم جواباً صحيحاً . ولما يئس من لقاء ليلى بارح الحىّ ولجأ إلى البرية وهو يقول[3] :

(١) الأغانى ص ٣٧
(٢) الديوان ص ٦٨ ، الأغانى ص ٥٤ ، تزيين الأسواق ص ٥٨
(٣) الديوان ص ٢٤

فمن أجلها ضاقت علىّ برحبها بلادى إذا لم أرض ممن أجاوره
ومن أجلهـا أحببت من لا يحبنى
وباغضت من قد كنت حيناً أعاشره

وكان المجنون وليلى وهما صبيان يذهبان إلى جبل قريب يقال له « التوباد » فذهب إلى هنالك وجلس على ربوة منه فأتته ذكريات الصبا فقال[1] :

هـذه الربوة كانت ملعبا لشبابينا وكانت مرتعـا
كم بنينا من حصاها أربعا واثنينا فحونا الأربعـا
وخططنا فى نقا الرمل فـلم تحفظ الريح ولا الرمل وعى
لم تزل ليـــلى بعينى طفلة لم تزد عن أمس إلا أصبعا
(شوق)

وخرج اللوح بن مزاحم ومعه بعض أولاده وذويه يبحث عن ابنه قيس ، فوجده هائماً على وجهه فى جبل التوباد ، وكان فى حالة يرثى لها ، عارياً ، نحيل الجسم ، طويل الأظافر ، يخط بأصبعه فى الرمل وهو تائه الفكر ، وقد طال شعر جسده وتوحش وألفته الظباء والوحوش فكانت تجالسه وتلازمه ، فلما اقترب ذووه منه لم يعرفهم ونفر منهم ، فناداه أبوه : قيس ، أنا أبوك اللوح وهذا أخوك ، فطب نفساً وابشر فقد وعدنى أبو ليلى أن يزوجكها . فأقبل إليهم وأنس بهم ، فقال له أبوه : يا قيس ، أما تتقى الله وتراقبه ؟ كم تطيع هواك وتعصينى ، فقد كنت أرجى ولدى ، أفضلك عليهم وأوثرك ، فأخلفت ظنى ولم تحقق أملى ، فليت شعرى ما هى أراها ممن يوصف بالجمال والحسن ، وقد بلغنى أنها فوهاء قصيرة جاحظة العينين شهلة سمجة ، فمَدّ عن ذكرها ولك فى قومك من هو خير لك منها . فلما سمع ثلبه فيها أنشأ يقول[2] :

يقول لى الواشون ليلى قصيرة فليت ذراعاً عرض ليلى وطولها
وأن بعينيها لعمرك شهلة - فقلت كرام الطير شهل عيونها
وجاحظة فوهاء لا بأس أنها منى كبدى بل كل نفسى وسولها
فدق صلاب الصخر رأسك سرمدا
فإنى إلى حين الممات خليلها

فاضطر أبوه أن يعده بالسعى لدى والد ليلى كى يزوجه إياها ، واستطاعوا بذلك أن يأخذوه معهم ويردوه إلى الحىّ وأهل بيته .

ولما رأته أمه بكت لحالته البائسة التعسة ، وحاولت جهدها أن تروّح عن نفسه ، فألبسته ملابس جميلة ، وأصلحت من شكله وهندامه ، وجعلت تواسيه وتشمله بعطفها ورعايتها عساها تجلب إلى قلبه العزاء والسلوة .

(شكل ٢)

وفى (شكل ٢) ينام المجنون إلى جانب مجرى ماء ، ويسهر على حراسته الوحوش من كل جانب ، فيربض الأسد والفهد إلى اليمين ، والثعلب والظباء والوعول إلى اليسار . وجاء ذووه وضربوا خيامهم بالقرب منه ، وقد خرج الرجال وانتشروا فى المكان ، بينما نرى والده بلحيته البيضاء قادماً نحوه . وقد أجاد المصور تصوير الحياة المنزلية لنساء البدو فى بيوتهن ، فرسم إحداهن وهى تحلب بقرة ، وأخرى تنزل على مغزل أحضرته معها وهى تستعين فى عملها بيديها وقدميها ، واثنتين جالستين فى مدخل إحدى الخيام وقد احتدم بينهما الجدل . وهذه الصورة[3] من تصوير المصور الإيرانى قاسم على أحد تلامذة المصور الشهير بهزاد ، وهى فى مخطوط المنظومات الخمس للشاعر نظامى الكنجوى كتب فى سنة ٩٠٠ هجرية (١٤٩٤م) باسم أحد أمراء السلطان حسين ميرزا . وهذا المخطوط محفوظ فى المتحف البريطانى .

(يتبع)

محمد مصطفى
مساعد فى دار الآثار العربية

(١) مجنون ليلى لشوقي ص ١١٤
(٢) الديوان ص ٢٠٦

(١) منقولة عن : Sakisian, Pl. LII, fig. 91 أنظر أيضا : S. P. A., III, p. 1866